للغمام طباع

أراد أبو الطيب الانصراف من عنده في بعض الليالي فقال له: اجلس فجلس فأمر له بجارية ثم نهض فقال له: اجلس فجلس فأمر له بمهر فقال له الخصي: تمدح الليلة يا أبا الطيب فقال:

[الوافر]

أَعَـنْ إِذْنِـي تَـهُـبُّ الـرِّيـحُ رَهْـواً
وَيَـسْـرِي كُـلَّـمَـا شِـئْـتُ الْـغَـمَـامُ[١]
وَلٰـكِـنَّ الْـغَـمَـامَ لَـهُ طِـبَـاعٌ
تَـبَـجُّـسُـهُ بِـهَـا وَكَـذَا الْـكِـرَامُ[٢]

بدر وبحر

يمدح سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد اللّه بن حمدان العدوي عند منصرفه من الظفر بحصن برزويه وعودته إلى أنطاكية وقد جلس في فازة[٣] من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):

[الطويل]

وَفَـاؤُكُـمَـا كَـالـرَّبْـعِ أَشْـجَـاهُ طَـاسِـمُـهْ
بِـأَنْ تُـسْـعِـدَا وَالـدَّمْـعُ أَشْـفَـاهُ سَـاجِـمُـهْ[٤]

= يعتذر الشاعر من ممدوحه، فرغم ما أفاضه من هبات على الشاعر ورجائه، فلا بدّ من الرحيل، فليس الأمر يتعلّق بالملل، فثمّة أمر آخر يتعلّق بأحوال الطقس السَّيّئ، فالمطر غزير، والمقام قد يطول في هذه الحالة ويُعيق الشاعر عن مقصده؛ ففي هذه الحالة من الصواب الرحيل والوداع.

(١) و (٢) الرهو: السير السهل. الغمام: السحب المليئة بالماء. يستنكر الشاعر أن يكون الأمر بيده؛ فالرياح لا تهب بإرادته وإذنه، والسحب لا تأتمر بأمره، إن الأمر يتعلّق بالممدوح الذي يجري جوده بالسرعة التي يراها مناسبة، لذا فالغمام يأتمر بأمر الأمير وذلك من طبعه، فهو الذي يفجّر سحبه بالجود المطبوع عليه.

(٣) الفازة: مظلة بعمودين.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٦١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٨، ١٥٧. الربع: الطلل. أشجاه: أحزنه. الطاسم: الدارس. سجم الدمع: هطل =

وَمَـــا أَنَـــا إِلَّا عَـــاشِـــقٌ كُـــلُّ عَـــاشِـــقٍ
أَعَـقُّ خَـلِـيـلَـيْـهِ الـصَّـفِـيَّـيْـنِ لَائِـمُـهْ[١]
وَقَـدْ يَـتَـزَيَّـا بِـالْـهَـوَى غَـيْـرُ أَهْـلِـهِ
وَيَـسْـتَـصْـحِـبُ ٱلْإِنْـسَـانُ مَـنْ لَا يُـلَائِـمُـهْ[٢]
بَـلِـيَـتُ بِـلَـى الْأَطْـلَالِ إِنْ لَـمْ أَقِـفْ بِـهَـا
وُقُـوفَ شَـحِـيحٍ ضَـاعَ فِي الـتُّـرْبِ خَـاتِـمُـهْ[٣]
كَـئِـيـبـاً تَـوَقَّـانِـي الْـعَـوَاذِلُ فِـي ٱلْـهَـوَى
كَـمَـا يَـتَـوَقَّـى رَيِّـضَ الْـخَـيْـلِ حَـازِمُـهْ[٤]

= بغزارة. الوفاء بضاعة نادرة، من معدن النبل والأصالة، يُخاطب الشاعر صاحبيه، مُنوّهاً بتبلّد مشاعرهما، حتى بدت خافتة الإحساس كأنها ذلك الربع الذي تركه ساكنوه فبدا موحشاً حزيناً لقدم العهد، ممَّا يحمل المرء على البكاء للأسف لانقطاع علاقة الشاعر بساكنيه، لذا فهو يحضّهما على البكاء، فالبكاء غسل للروح وتجديد للمشاعر، وهاهو الشاعر يبكي الآن تلك الأطلال لانقطاع صلتها به كما يبكي صاحبيه وقد تركاه وحيداً يبكي وفاءهما أيضاً.

(١) و (٢) يسوّغ الشاعر سبب بكائه، بأنه عاشق مغرم ثم يُردف أن أحد صديقيه لامه على عقوقه لهما، فيردّ عليه أن اللائم في الحقيقة هو العاق الذي تخلّى عن صداقة الشاعر، إنه لا يزال يُخلص الودّ لهما، فنيّته نحوهما لا يشوبها غش أو ريبة أو كذب، والحقّ أن المرء قد يتزيّا بزيّ لا يلائمه، والصداقة رداء يحميه من عوادي الزمن إذا كان صادق الودّ، ولما لم يكن صاحباه يُخلصان له الودّ راح يُعرّض بمسلكهما نحوه، فليسا في الحقيقة يفيان بما تتطلّبه الصحبة من إخلاص الودّ وحسن الصحبة.

(٣) الأطلال: آثار الديار. الأطلال رمز علاقة الإنسان بالأرض والوطن والذكريات، من هنا أدرك الشاعر الأهمية التي تحمله على البكاء، والبكاء غسل لرواسب الحاضر التي تدعو للأسف، فإذا بالذكريات ترسم خيالاتها في لا وعي المرء بما فيها من مسرّة وسعادة، لذا فمن الطبيعي أن يدعو على نفسه بالخسران إن لم يقف على الأطلال ليغسل تراب ماضٍ حميم، مفتشاً فيه عن ومضات ذلك الماضي الحبيب مع أحبّة تركوا الديار، إنه لشدّة حرصه على ذلك كبخيل أضاع درهماً في التراب فراح يبحث عنه في أرض لا حدود لها.

(٤) الكئيب: الحزين. توقاني: اجتنبني. العواذل، الواحد عاذل: اللّائمون. الريض من =

قِفِي تَغْرَمِ ٱلْأولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي
بِثَانِيَةٍ وَٱلْمُتْلِفُ الشَّيْءَ غَارِمُهْ(١)
سَقَاكِ وَحَيَّانَا بِكِ اللَّهُ إِنَّمَا
عَلَى الْعِيسِ نَوْرٌ وَٱلْخُدُورُ كَمَائِمُهْ(٢)
وَمَا حَاجَةُ الأَظْعَانِ حَوْلَكِ فِي الدُّجَى
إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكِ عَادِمُهْ(٣)
إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكِ الْعُيُونُ بِنَظْرَةٍ
أَثَابَ بِهَا مُعْيِي الْمَطِيِّ وَرَازِمُهْ(٤)

= الخيول: الصعب القياد. الحازم: السائس الذي يسوسه ويلجمه. يذكر الشاعر موقف اللائمين منه؛ يتكرّر لومهم له، ويُقابل موقفهم هذا باللامبالاة، مصرًّا على الوقوف على الأطلال، بل يزيده موقفهم هذا منه تنمّراً بحيث يخافون منه ويجتنبونه كما يجتنب السائس جواداً صعب القياد مخافة أن يعضه أو يرفسه برجليه.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. المهجة: الروح. يُخاطب الشاعر محبوبته طالباً منها أن تنظر إليه ثانية، فنظرتها الأولى أتلفت روحه وأضاعت صوابه، وهو بحاجة إلى نظرة ثانية تعيد إليه روحه وصوابه وبذلك تكون قد أدّت ما عليها من غرم، لأنها في الحقيقة هي التي أدّت إلى تلفه وخسرانه.

(٢) العيس: الإبل البيضاء. النور: ضرب من الزهور بيضاء. الكمائم: أغلفة الزهور قبل تفتحها. يُخاطب الشاعر حبيبته، وهي بين باقة من الصبايا يمتطين النياق البيضاء في رحلتهن إلى المجهول، والباقة متجانسة، لطيب عبقهن في خدورهن كأنهن زهرات في أكمامها لم تتفتح بعد، ولكي تتفتح دعا لهن بالسقيا والانتعاش، عندئذٍ تكون تحيّة القلوب إلى القلوب.

(٣) الأظعان: النسوة الراحلات في هوادجهن. يُردف الشاعر مخاطباً حبيبته، إنها قمر يُنير ظلمة الليل البهيم، والركب بحاجة إلى من يُنير لهن الدرب، إنهن لسن بحاجة إلى قمر يؤنسهن، لأن محبوبته لا تجد لها مزاحماً في هذا المجال؛ إنها ضياء لطيف ينشر في النفوس الأنس والانشراح.

(٤) أثاب: عاد إليه جسمه بعد هزاله. المعيي: الكليل. المطي، الواحدة مطيّة: الدواب التي تُركب. الرازم: الساقط من شدّة التعب. يُردف الشاعر حديثه عن مدى قوّة سلطان حبيبته على الوجود، فحتى النياق المدنفة من شدّة التعب، إذا نظرت إلى =

حَبِيبٌ كَأَنَّ ٱلْحُسْنَ كَانَ يُحِبُّهُ
فَآثَرَهُ أَوْ جَارَ فِي ٱلْحُسْنِ قَاسِمُهْ[١]
تَحُولُ رِمَاحُ ٱلْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ
وَتُسْبَى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهْ[٢]
وَيُضْحِي غُبَارُ ٱلْخَيْلِ أَدْنَى سُتُورِهِ
وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمُلَازِمُهْ[٣]
وَمَا ٱسْتَغْرَبَتْ عَيْنِي فِرَاقاً رَأَيْتُهُ
وَلَا عَلَّمَتْنِي غَيْرَ مَا الْقَلْبُ عَالِمُهْ[٤]
فَلَا يَتَّهِمْنِي الْكَاشِحُونَ فَإِنَّنِي
رَعَيْتُ الرَّدَى حَتَّى حَلَتْ لِي عَلَاقِمُهْ[٥]

= محبوبته زال عنها الإعياء وتجدّدت لديها الرغبة في الحياة، فعادت إليها حيويتها وقوّتها، فكيف بالبشر وبخاصة من يُحبّها.

(١) يُردف الشاعر حديثه عن محبوبته، لقد صاغها الجمال صياغة عجيبة فصبّ ما في جعبته من جمال وخصّها به وحدها، فكأنه جار ولم يعدل حتى يُوزع ما في جعبته منه على سائر الحسناوات.

(٢) الخط: موضع في اليمامة يشتهر بتقويم الرماح. الحيّ: جماعة من البشر ينزلون في البادية. يُشيد الشاعر بمناعة قبيلة حبيبته، إنهم يحمون نساءهم برماحهم الخطيّة، ويحتاطون لها مخافة سبائها لما يكلّفهم هذا من مشقة، وهم بدورهم يُغيرون على القبائل الأخرى فيسبون خيرة النساء لديهم ليجعلوهن خادمات لها.

(٣) النشر: العبير الطيّب. الكباء: عود البخور. يُنوّه الشاعر بمنعة حبيبته، إنها محاطة بالستور، فأدناها تُغطّيه غبار الخيول التي تقوم بحراستها، فتتصاعد لتخفي خباءها عن العيون الشرهة أو التي تسعى لسبائها، وفي المقابل ترتفع أجواء حميمة لطيفة، قوامها عبق البخور الذي يتصاعد في أركان ذلك الخباء فتكون ساتراً لها يحول دون تراكم الغبار في مخدعها.

(٤) لقد اعتاد الشاعر على الترحال من مكان إلى آخر، لذا فإنه لا يستغرب ما يتوالى عليه من مصائب وويلات، فحياته حُبلى بالمآسي؛ فالفراق مألوف لديه، ولم تزده عينه على ما يعلمه قلبه من آلام الفراق علماً بطبيعة الحياة؛ فهو لا يتفاجأ بحدث مألوف يتكرّر باستمرار.

(٥) الكاشحون: المبغضون. الردى: الهلاك، الموت. العلاقم، الواحد علقم: =

مُـشِـبُّ الَّـذِي يَـبْـكِـي الـشَّـبَـابَ مُـشِـيـبُـهُ
فَـكَـيْـفَ تَـوَقِّـيـهِ وَبَـانِـيـهِ هَـادِمُـهْ؟(١)
وَتَـكْـمِـلَـةُ الْـعَـيْـشِ الـصِّـبَـا وَعَـقِـيـبُـهُ
وَغَـائِـبُ لَـوْنِ الْـعَـارِضَـيْـنِ وَقَـادِمُـهْ(٢)
وَمَـا خَـضَـبَ الـنَّـاسُ الْـبَـيـاضَ لأَنَّـهُ
قَـبِـيـحٌ وَلَـكِـنْ أَحْـسَـنُ الـشَّـعْـرِ فَـاحِـمُـهْ(٣)
وَأَحْـسَـنُ مِـنْ مَـاءِ الـشَّـبِـيـبَـةِ كُـلِّـهِ
حـيَـا بَـارِقٍ فِـي فَـازَةٍ أَنَـا شَـائِـمُـهْ(٤)

= الحنظل، وهو نبات شديد المرورة. إحساس الشاعر بالكاشحين وموقفه منهم يجعله يتصدّى لردّة أفعالهم بعنف وشدّة، فقد يتهمونه بالجبن، لذا فإنه ينفي عنه تلك التهمة، فقد رعى الهلاك، فحيثما رحل صادف حروباً اشترك فيها بسيفه ولسانه، والعادة على معايشة الألم تميت الإحساس به، ولقد تشرّب كؤوس العلقم مترعة حتى بات لا يحسّ بمرارتها.

(١) توقيه: تحذره. رغم ما يبدو على الشاعر من ثورة على كلّ شيء، فإنه يبدو الآن قدرياً، فلا مردّ لأشياء تجري على سائر البشر، فمن عاش لا محالة سيُفاجئه المشيب يوماً، تماماً كالموت، فهو ضيف كريه وكلّ البشر يحسبون له ألف حساب، لذا لا يستطيع أحد اجتنابه، فضلاً عن دفعه، لأن الأمر بيد من رسم خارطة الوجود البشري، سبحانه وتعالى.

(٢) و (٣) العارضان: جانبا الوجه. عقيبه: تاليه. يُردف الشاعر حديثه عن رحلة الحياة لدى البشر، فثمّة مرحلتان أساسيتان؛ الصبا شباب وقوة حماس ولهو فإذا بعارضيه يكلّلهما سواد محبب إلى كل قلب، والنساء يهوين الفتيّ من الرجال، والرجال بدورهم يُعجبون بدوام الشباب فيهم، وفجأة دون سابق إنذار تبدأ شعيرات تغزو العارضين بلون مكروه غير مألوف، إنه الشيب، إنه الضعف، إنه بدء نهاية الرحلة، وليتلافى الرجل ما يراه فيه عيباً يلجأ إلى الخضاب ليستر مشيبه بسواد مستجلب خادع، ولكنه على كلّ حال أفضل من الشيب، وإن كان الشيب مدعاة للوقار والهيبة إلّا أن سواد الشعر لافت لنظر الحسناوات من النسوة.

(٤) بماء الشبيبة: حسنها ونضارتها. الحيا: المطر. البارق: السحاب الذي يصدر البرق. الفازة: مظلة بعمودين نصبت لسيف الدولة. الشائم: النظر إلى البرق يتوقّع مطراً. =

عَـلَـيْـهَـا رِيَـاضٌ لَـمْ تَـحُـكْـهَـا سَـحَـابَـةٌ
وَأَغْـصَـانُ دَوْحٍ لَـمْ تُـغَـنِّ حَـمَـائِـمُـهْ(١)
وَفَـوْقَ حـوَاشِـي كُـلِّ ثَـوْبٍ مُـوَجَّـهٍ
مِـنَ الـدُّرِّ سِـمْـطٌ لَـمْ يُـثَـقِّـبْـهُ نَـاظِـمُـهْ(٢)
تَـرَى حَـيَـوَانَ الـبَـرِّ مُـصْـطَـلِـحـاً بِـهِ
يُـحَـارِبُ ضِـدٌّ ضِـدَّهُ وَيُـسَـالِـمُـهْ(٣)
إِذَا ضَـرَبَـتْـهُ الـرِّيـحُ مَـاجَ كَـأَنَّـهُ
تَـجُـولُ مَـذَاكِـيـهِ وَتَـدْأَى ضَـرَاغِـمُـهْ(٤)

= عاد الشاعر إلى الواقع الذي يتمثل أمام عينيه تاركاً تأملاته في الحياة، ثمّة فازة ينظر إلى شاغلها نظرة تفاؤل بخير وجود عميم، فسحب تفيض بوميض الماء العذب الزلال الذي يسعى إلى الحصول، فلا يُوازيه الشباب قيمة وعزًّا، فما نفع الشباب والفقر وسوء الحال يلاحق صاحبه؟ فليترك الشباب لأصحابه وليأمل الغنى حيث من بيده المال والقوّة والمنعة والحماية.

(١) الدوح: ضرب من الشجر العظيم. يشرع الشاعر بوصف تلك الفازة، إنها تزدان بالرسوم، فثمَّة صور رياض وأشجار تجتمع عليها أنواع من الطيور، إنها صامتة لا تدبّ فيها الحياة خرساء، كما أن تلك الأشجار ساكنة لا حراك لها تجمّعت وتجمّدت في حيّز، مهما اتّسع فإنه يضيق بها.

(٢) و (٣) الموجّه: ذو الوجهين. السمط: السلك والسلك في العادة يُطلق على القلادة. قصد بسمط الدر: تلك الدوائر البيضاء التي رسمت على حواشي تلك الأردية التي جعلت منها الفازة ولم تثقب لأنها ليست درًّا حقيقياً. إنها مسرح للوحوش من الحيوانات الضارية، كلّ تسمّر في مكانه في سلام ووئام، رغم أن من طبيعتها التقاتل والتفاني، ولقد أعمل الفنان ريشته ببراعة، فلم ينقصها إلّا الحركة، إنها حركة الحياة.

(٤) المذاكي: المسنّة من الخيول. تدأى: تختل وتراوغ. الضراغم، الواحد ضرغام: من أسماء الأسود. تتمثل الحركة في هذا المشخص من الجماد عندما تحركها ريح، فإذا بكلّ ما فيها يبدو ويمور مور الحياة بعنفها، فتبدو الجياد تعدو ويُلاحق بعضها بعضاً في جولات لا تهدأ، وفي جانب آخر من المشهد فتبدو الأسود تستعدّ للانقضاض على فرائسها، والظباء على وشك الانطلاق بسرعة كعادتها عندما تحسّ بخطر داهم.

وَفِـي صُـورَةِ الـرُّومِـيِّ ذِي الـتّـاجِ ذِلّـةٌ
لأَبْـلَـجَ لا تِـيـجَـانَ إِلَّا عَـمَـائِـمُـهْ[١]
تُـقَـبِّـلُ أَفْـوَاهُ الـمُـلُـوكِ بِـسَـاطَـهُ
وَيَـكْـبُـرُ عَـنْـهَـا كُـمُّـهُ وَبَـرَاجِـمُـهْ[٢]
قِـيَـامـاً لِـمَـنْ يَـشْـفِـي مِـنَ الـدَّاءِ كَـيُّـهُ
وَمَـنْ بَـيْـنَ أُذْنَـيْ كُـلِّ قَـرْمٍ مَـوَاسِـمُـهْ[٣]
قَـبَـائِـعُـهـا تَـحْـتَ الـمَـرَافِـقِ هَـيْـبَـةً
وَأَنْـفَـذُ مِـمّـا فِـي ٱلْـجُـفُـونِ عَـزَائِـمُـهْ[٤]
لَـهُ عَـسْـكَـرَا خَـيْـلٍ وَطَـيْـرٍ إِذَا رَمَـى
بِـهَـا عَـسْـكَـراً لَـمْ يَـبْـقَ إِلَّا جَـمَـاجِـمُـهْ[٥]

---

(١) يروى «الأبلحُ» بدلاً من «الأبلج». والأبلح: المتكبّر العظيم في نفسه. تتّسع الصورة لخصمين، طالما تعاديا وتقاتلا، في ركن من المشهد قيصر الروم، وعليه علائم المذلة والانكسار، فهو ساجد مقابل أمير عربي يقف موقف الاعتزاز والظفر، وهو يعَمّ بعمامة العروبة.

(٢) و (٣) البراجم، الواحدة برجمة: مفاصل الأصابع. ولاتمام محتوى الصورة، ملوك يتوافدون بين يدي الأمير يُقبّلون بساطه ليدخلوا في سلمه، وهم يودّون تقبيل كمّه وهو يمتنع لشأنه العظيم، فتبدو أشواقهم وحسراتهم لنيل تلك المكرمة، ولكن هيهات أن يستجيب لرغباتهم، وهم قِيام ترهقهم الذلّة والمسكنة، وعليهم السكينة لهيبته، وقلوبهم يتصاعد خفقانها لعلمهم بقوّته؛ إنه يشفي جبنهم بقتلهم فيتخلّصون من رعبهم الدائم، ولقد عرفوا أنه قادر على كي قلوب العصاة منهم، فما من سيد منهم إلّا طبعه بميسم لا يُمحى أثره في نفوسهم وقلوبهم، لذا فهم يأملون مهادنته.

(٤) القبائع، الواحدة قبيعة، وهي ما يُزين مقبض السيف من الفضّة أو الحديد. الجفون، الواحد جفن: الغمد. يُتمّ الشاعر الصورة؛ فالملوك يتكئون على قبائع سيوفهم لشدّة رهبهم وعظم هيبته وجلاله، فنظراته الحادّة الصارمة أقوى من أي سلاح، وعزيمته بمثابة سيوف تحتفظ بأغمادها.

(٥) من أسباب نظر الأمير، أنه يقود جيشين: جيش بشري قِوامه جنده المدرّب أفضل تدريب والمعدّ أفضل عتاد، وجيش آخر قوامه طيور لا تعرف الرحمة طريقاً إلى =

أَجِـلَّـتُـهـا مِـنْ كُـلِّ طَـاغٍ ثِـيَـابُـهُ
وَمَـوْطِـئُـهَـا مِـنْ كُـلِّ بَـاغٍ مَـلَاغِـمُـهْ[١]
فَـقَـدْ مَـلَّ ضَـوْءُ الـصُّـبْـحِ مِـمَّـا تُـغِـيـرُهُ،
وَمَـلَّ سَـوَادُ الـلَّـيْـلِ مِـمَّـا تُـزَاحِـمُـهْ[٢]
وَمَـلَّ الـقَـنَـا مِـمَّـا تَـدُقُّ صُـدُورَهُ،
وَمَـلَّ حَـدِيـدُ الْـهِـنْـدِ مِـمَّـا تُـلَاطِـمُـهْ[٣]
سَـحَـابٌ مِـن الْـعِـقْـبَـانِ يَـزْحَـفُ تَـحْـتَـهَـا
سَـحَـابٌ إِذَا اسْـتَـسْـقَـتْ سَـقَـتْـهَـا صَـوَارِمُـهْ[٤]

= قلوبها، فالجند يقضون على الأعداء ووحوش الطير تنهش لحومها، فلا يبقى منهم إلّا الجماجم والعظام.

(١) الأجلة، الواحد جلّ: ما يُجعل على ظهر الدابة. الملاغم: تشمل الفم والأنف والأشداق من كلّ شيء. يُردف الشاعر متحدّثاً عمَّا يفعله سيف الدولة بالملوك الطغاة وأسلابهم؛ فمن أثوابهم يتَّخذ أجلّة لخيوله، ومن أنوفهم مواضع فخرهم يتّخذها موطئاً لأقدامه، وهذا مغالاة تُرضي الممدوحين، فيعمد إليها المتنبي كعادته.

(٢) يُخاطب الشاعر الأمير بأنه دائم الإغارة على أعدائه في كلّ وقت، فقد ملّ الصبح لمبادرة الأمير عدوّه مع الفجر، والقوم نيام فيفتك بهم، والليل قد ضجر، فإذا به يملّ ظلمة حالكة زادت من سواده، إنها غبار تُثيره خيول الأمير وفرسانه، وكأن تلك تُزاحم حلكة الليل لتزيحها عن أمكنتها لتحلّ محلها، فيبدو الكون في ليل سرمدي دائم.

(٣) القنا: الرماح. تدقّ: تكسر. صدر الرمح: أعلاه. إنها حالة تتكرّر، لذا فالملل يسيطر على رماح جند الأمير لدوام استعمالها، فهي تدقّ صدور الأعداء وتقرعها بعنف فتُودي بحياتهم، حتى السيوف الهندية داخلها الملل لكثرة استعمالها في الحروب، فهي دائمة المصادمة فتلطم أعداء الأمير بلا رحمة وتبطش بفرسانهم.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٥٣. سحاب: غيوم. العقبان، الواحد عقاب: ضرب من الطيور الكاسرة. استسقت: أرادت السقيا. الصوارم، الواحد صارم: السيوف القاطعة. يرسم الشاعر صورة زحف جيش الأمير، إنه سحاب كثيف يُغطي الأرض بجنده وسلاحه، وإذا نظر المرء إلى ما فوق هذا الجيش العرمرم العظيم هاله منظر سحب تطير وتتحرّك بسرعة، إنها جوارح الطير، وقد اعتادت على مصاحبة =

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتّى لَقِيتُهُ
عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قَوَائِمُهْ(١)
مَهَالِكَ لَمْ تَصْحَبْ بِهَا الذِّئْبَ نَفْسُهُ،
وَلَا حَمَلَتْ فِيهَا الْغُرَابَ قَوَادِمُهْ(٢)
فَأَبْصَرْتُ بَدْراً لا يَرَى الْبَدْرُ مِثْلَهُ،
وَخَاطَبْتُ بَحْراً لا يَرَى الْعِبْرَ عَائِمُهْ(٣)
غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ
بِلَا وَاصِفٍ وَالشِّعْرُ تَهْذِي طَمَاطِمُهْ(٤)

= هذا الجيش، لأنه يُعينها على الاستمرار في ما يُوفّره لها من قوت على الدوام، ويقتصر عملها على تخليص الطبيعة من جيف الأعداء.

(١) و (٢) صروف الدهر: مصائبه وويلاته. المؤيد: القوي. يُطلعنا الشاعر على مكابداته وصراعه مع الدهر ومصائبه، فقد رحل إلى بلدان كثيرة يفتّش عمّن يُرضي طموحه ويشبع خياله حتى كان اللقاء الحميم الودود بين الشاعر والأمير، وهو لم يتوان طيلة رحلة البحث الطويلة هذه، وقد كانت العزيمة رائدة في رحلة البحث هذه، فلم تكلَّ ولم تضعف حتى وقعت على بُغيتها، لقد قطع مفازات مهلكات، وما كان بمقدور الذئب أن يقوى على اجتياز تلك الأخطار، وحتى الغراب الذي لا يستقرّ بمكان لما استطاعت قوادمه على حمله طوال تلك المسافات التي قطعها الشاعر حتى وصل أخيراً إلى قصر الأمير.

(٣) عِبر البحر، بكسر العين: شاطئه. يمدح الشاعر سيف الدولة، أخيراً وقع نظره على بدر ينشر أنسه على الكون فيشمل ضياؤه كلّ المخلوقات، حتى إن القمر لم يعثر على شبيه رغم تجواله على سائر الكون، وكانت مخاطبة جعلت الشاعر يكتشف أنه أمام بحر زاخر بالجود والعلم، فلا يستطيع أحد الخوض فيه، وإن فعل فإنه لن يدرك شاطئه لاتساعه وعمقه.

(٤) تهذي: تتكلم بما هو غير معقول. الطماطم، الواحد طمطم: من في لسانه عجمة، يُعبّر الشاعر عن مدى سخطه وغضبه، فرغم كثرة شعراء بلاط سيف الدولة الذين لا يُحسنون قولاً، ومعظمهم لا يكادون يفقهون قولاً، وهم يتشدّقون بطمطمانية لا تفهم، فضلاً عن سخافة عباراتهم ومعانيهم المرذولة. علماً أن مزايا الممدوح تُوحي بجيد الشعر وعظيم معانيه.

وَكُـنْـتُ إذَا يَـمَّـمْـتُ أَرْضـاً بَـعِـيـدَةً
سَـرَيْـتُ وَكُـنْـتُ الـسِّـرَّ وَالـلَّـيْـلُ كَـاتِـمُـهْ[١]
لَـقَـدْ سَـلَّ سَـيْـفَ الـدَّوْلـةِ الـمَـجْـدُ مُـعْـلِـمـاً؛
فَـلَا الـمَـجْـدُ مُـخْـفِـيـهِ وَلَا الـضَّـرْبُ ثَـالِـمُـهْ[٢]
عَـلَـى عَـاتِـقِ الـمَـلْـكِ الأَغَـرِّ نِـجَـادُهُ،
وَفـي يَـدِ جَـبَّـارِ الـسَّـمٰـوَاتِ قَـائِـمُـهْ[٣]
تُـحَـارِبُـهُ الأَعْـدَاءُ وَهْـيَ عَـبِـيـدُهُ،
وَتَـدَّخِـرُ الأَمْـوَالَ وَهْـيَ غَـنَـائِـمُـهْ[٤]
وَيَـسْـتَـكْـبِـرُونَ الـدَّهْـرَ وَالـدَّهْـرُ دُونَـهُ،
وَيَـسْـتَـعْـظِـمُـونَ الـمَـوْتَ وَالـمَـوْتُ خَـادِمُـهْ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٢. يمّمت: قصدت. السرى: سير اللّيل. عاد الشاعر عمَّا كان يُعانيه في رحلة البحث عن البطل الذي يمكنه أن يملأ الفراغ النفسي الذي يُحسّ به؛ فقد قطع آماداً بعيدة ليل نهار، فقد عرفته السّرى أنيس وحدتها ووحشتها، في ظلمة الليل الحالكة.

(٢) ثلم السيف: كسر حرفه. يمدح الشاعر الأمير، لقد كان على موعد مع المجد فجرّده سيفاً يردّ عنه عاديات النكبات، فلا يُغمده، ولا يثلّمه الضرب، لأنه ليس مجرد آلة حديدية، بل إنه إنسان شديد المضاء والعزم، فلا تلوي إرادته الأزمات والمصائب.

(٣) العاتق: الكتف. الملك: أي الخليفة. الأغرّ: الأبيض الكريم. النجاد: حمالة السيف. قائم السيف: مقبضه. يُنوّه الشاعر بمكانة ممدوحه عند الخليفة، فقد اختاره ليكون حامي البلاد من الأعداء يضرب اللّه تعالى به أعداءه فقد جرّده لهذا الغرض، فكان نصره بإرادته تعالى، لذا فقد رفعه إلى أعلى مكانة يصل إليها أفراد من البشر.

(٤) ومن حسن حظّ الأمير أن أعداءه يجاهرون بعدائهم له، ممَّا يُساعده على قهرهم واستعبادهم فيأسرهم، حتى أموالهم التي يدّخرونها تنتقل من خزائنهم في حال انتصاره عليهم إلى خزائنه، فيستعين بها على عدوّه، فتكون حسرة في قلوبهم.

(٥) إنها معركة خاسرة باستمرار، فهم يُرجعون كلّ أمر إلى الدهر الذي بيده مصيرهم، ولم يعلموا أن الدهر يأتمر بأمره، وهو طوع إرادته، والأمر إذا تعلّق بالموت فإنه على وفاق مع الأمير، فبيده يكون موتهم وحياتهم.

وَإِنَّ الَّـذِي سَـمَّـى عَـلِـيًّـا لَـمُـنْـصِـفٌ،
وَإِنَّ الَّـذِي سَـمَّـاهُ سَـيْـفـاً لَـظَـالِـمُـهْ[١]
وَمَـا كُـلُّ سَـيْـفٍ يَـقْـطَـعُ الْـهَـامَ حَـدُّهُ،
وَتَـقْـطَـعُ لَـزْبَـاتِ الـزَّمَـانِ مَـكَـارِمُـهْ[٢]

وإذا كانت النفوس كباراً

يمدحه وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية:

[الخفيف]

أَيْـنَ أَزْمَـعْـتَ أَيُّـهَـذَا الْـهُـمَـامُ
نَـحْـنُ نَـبْـتُ الـرُّبَـى وَأَنْـتَ الـغَـمَـامُ[٣]
نَـحْـنُ مَـنْ ضَـايَـقَ الـزَّمَـانُ لَـهُ فِـيـ
ـكَ وَخَـانَـتْـهُ قُـرْبَـكَ الأَيَّـامُ[٤]
فِـي سَـبِـيـلِ الْـعُـلَـى قِـتَـالُـكَ وَالـسِّـلْـ
ـمُ وَهٰـذَا الـمُـقَـامُ وَالإِجْـذَامُ[٥]

---

(١) و (٢) لزبات الزمان: شدائده. يرى الشاعر أن تسمية الأمير بعلي كانت في مكانها، لأنه رفيع المنزلة عالي الهمة والمقام، ومن لقّبه سيفاً، فقد بخسه حقّه، لأن السيف شيء مادي، فيصدأ وينبو، فضلاً عن احتياجه للإرادة، فالحديد لا يعمل بذاته، إنما بإرادة حامله وقوّته، والأمير يعمل على دفع المصائب عن المحتاج بماله وحمايته وشجاعته، لذا فمن الظلم والخطأ أن يسمّى السيف.

(٣) أزمع: عزم على الأمر. الهمام: الملك العظيم. الربى، الواحدة ربوة: ما ارتفع من الأرض. الغمام: السحب المليئة بالماء. يُخاطب الشاعر ممدوحه مستفسراً عن مسيره وسببه؛ إنه ملك عظيم، وبيده مقاليد كلّ شيء، إنه غمام عمَّ فيضه وغيثه تلك التي تعانق السماء، فإذا بالنبت تدبّ فيه الحياة وينتعش به الأمل، لذا يسأله إلى أين المسير، والبشر رهن إشارته يأتمرون بأمره، وهو سرّ حياتهم لأنهم نبت يديه فيه ومنه يعيشون، وفي حال تخلّيه عنهم، فلا بدّ للبياس أن يدبّ فيهم.

(٤) إنَّه من سوء حظّ الشاعر ومن لفّ لفّه أن يُشارك الزمان بالممدوح، فضلاً عن أن يستأثر به لنفسه دونهم؛ فهم بحاجة إليه لدفع الفاقة عنهم، فليس من العدل أن ينفرد به دون سائر الناس.

(٥) الإجذام: الإسراع في المسير. يُنوّه الشاعر بسعي سيف الدولة الجادّ إلى إدراك =